دلالة التاريخ

وفوق دلالة الفطرة ، ودلالة الكون ، ودلالة الأخلاق ، ودلالة الوحى ، هناك دلالة التاريخ .

فالذي يستقرئ التاريخ منذ عرف الإنسان تاريخاً - يرى أن الجماعات البشرية في جميع الأقاليم حارة وباردة ، ومن مختلف الأجناس والألوان ، بيضاء وسوداء ، وفي شتَّى المستويات بداة ومتحضرين ، ومن كل الطبقات أغنياء وفقراء ، وفي جميع العصور قديمها ووسيطها وحديثها ، هؤلاء الجماعات المتفرقة عرفوا الإيمان بالله ، على صورة من الصور ، وقد ذكرنا كلمة المؤرخ « بلوتارك » : إنه لم توجد أبداً طوال أزمنة التاريخ مدينة بلا معابد ، وإن وُجِدت مدن بلا قلاع أو حصون ، أو قصور أو غيرها . كما ذكرنا كلمة الفيلسوف الفرنسي « برجسون » : إنه قد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة .

أجل ، لقد اعتقدت كل تلك الجماعات البشرية بوجود إله يستحق العبادة والتعظيم ، وكان لهذه العقيدة أثرها في حياتهم وسلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم . فهل أجمع النوع الإنساني في سائر أجياله على غير حقيقة ؟

إن الذي يحترم نوع الإنسان ، ويحترم نتائج التاريخ ، ويحترم عقله هو ، لا بد أن يُسَلِّم بأن هذا الإجماع التاريخي دليل يؤكد تلك الحقيقة الكبرى ، وهى وجود الله سبحانه .

وانحراف بعض الناس أو أكثرهم في تصور الألوهية لا ينفي تلك الحقيقة بل يؤكدها ، فإن هؤلاء من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها ، وخلعوا كثيراً من صفاتها على المخلوقات التي اعتبروها مظهراً لتجلِّي الإله ، أو رمزاً له ، أو توهموها من نسله أو نحو ذلك من الأوهام! ولهذا كانت مهمة الأنبياء تقويم هذا الانحراف ، وتصحيح الإيمان ، وتخليصه من شوائب الوثنية وخرافاتها .

ولا عجب أن يحثنا القرآن على السير في الأرض ، والنظر في تاريخ الغابرين ، والاعتبار بمصارع المكذِّبين ،

والتأمل في آثارهم بعقول بصيرة ، وقلوب مفتوحة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾ (محمد: ١٠)، ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام: ١١)، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦).

الحق أن تجارب التاريخ ـ كتجارب الواقع أيضاً ـ كلها تنطق وتشهد بأصالة الإيمان بوجود الله تعالى ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ، ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ، ليستقر ويتماسك ويرقى . يقول الأستاذ العقاد :

« إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم ، أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه ، في علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه ».

«ويقرر لنا التاريخ : أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأُخرى في حركات الأُمم ، فإنما تتفاوت فيه القوة لمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة».

«هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ، ولا قوة العرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام».

«أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، إلى غير نهاية ، بين آزال لا تُحصى في القِدَم ، وآباد لا تُحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى ، وغايتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين في جميع العصور».

« ومن أدلة الواقع على أصالة الدين ، أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التي لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن مكين ».

« وكذلك تُلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطل الضمير ، مضطرب الشعور يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه ».

« فهذا الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها ، وشجرة مجتثة من أُصولها ».

« وقَلَّ أن ترى إنساناً معطل الضمير ، على شيء من القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم ، إذا حلت العقيدة في وجدانه محل التعطيل والحيرة »[1].

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ١٥، ١٦ .

الحجب التي تحول بين الناس وبين الله

لعل سائلاً يسأل فيقول :

إذا كانت الدلائل على وجود الله بهذا الوضوح ، وهذه القوة ، وهذه الكثرة ، فما لنا نرى بعض الناس يجحدون بالله ولا يؤمنون به ؟ ويقولون : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (الجاثية: ٢٤).

والجواب : إن هناك حُجباً كثيفة تحول بين بعض البشر ، وبين معرفة الله ، والإيمان به . وهذه الحُجب مما كسبت أيدي الناس ، لا من فطرة الله .

١- الانحصار في دائرة الحس :

وأول هذه الحجب : هو الانحصار في الماديات والمحسوسات التي يعيش فيها الأطفال ، ولا يعرفون غيرها .

فهؤلاء الناس أشبه بالأطفال في عقولهم وتفكيرهم . إنهم يقولون : إذا كان الله موجوداً ـ كما يقول المؤمنون ـ

فلماذا لا نراه بأعيننا ، ولا نُدركه بحواسنا ، كما نرى ونُدرك سائر الموجودات ؟ وهل يسوغ لنا أن نؤمن بما لا نراه ؟

والجواب : أن حصر الموجودات فيما يُرى ويُحس غير صحيح ، فكم من موجودات لا تُحس ولا تُرى ، كما أن حصر وسائل المعرفة في الإدراك الحسي غير صحيح كذلك . فالإنسان يعرف ويدرك عن طريق البداهة والفطرة ، وعن طريق العقل والفكر ، وعن طريق البصيرة والإلهام ، كما يعرف ويدرك عن طريق الحس والرؤية .

إن علماء الفلك الآن يُقدِّرون وجود كواكب ، بيننا وبينها ملايين السنين الضوئية ، وقدَّروا مواقعها والأبعاد بين بعضها وبعض ، لأن وجودها في المواقع التي حدَّدوها ، يفسر لهم آثاراً وظواهر معينة ، في حركة الكواكب التي رصدوها ، ويستدلون بما رأوه على ما لم يروه ، ويتبين بالملاحظات العلمية صحة الفرض الذي فرضوه .

فهل يُلام هؤلاء العلماء على إيمانهم بما لم يروه ولم يحسوه مع أنهم اهتدوا إليه بالمنطق الرياضي الذي يعتمد على الأرقام لا على الأوهام ؟

إن هؤلاء العلماء قد اعتمدوا على منطق بسيط ولكنه صادق ، هو الاستدلال بالأثر على المؤثر ، فهم قد عرفوا الكواكب البعيدة بآثارها لا بذواتها ، وعلى هذا النهج نفسه درس العلماء الطبيعيون « الذرَّة » واستخدموا قوانين الكتلة والطاقة مع إنهم لم يروا الذرَّة حتى الآن ، كل ما انتهوا إليه بوسائلهم الألكترونية الجبارة أنهم استطاعوا أن يروا ظلها أو خيالها بعد تكبيره وتضخيمه .

فكيف نُسلِّم بهذا المنطق ـ منطق الاستدلال بالآثار ـ ونستخدمه في علوم الطبيعة والفَلك ثم ننكره في معرفة الخالق الأعلى ؟

يقول الدكتور البحَّاثة « دى نوى » :

« كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله ، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه ، على الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي ، لا يلزمه أن يتصور « الله » إلاَّ كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب ، فإن التصور في كلا الحالين ناقص وباطل .

وليس الكهرب قابلاً للتصور في كيانه المادي . وإنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب»[1].

٢- الغفلة :

إن ثاني هذه الحُجب هو الغفلة ، الغفلة التي تغشى بعض الناس ، فتصيب أفكارهم بالشلل وقلوبهم بالعقم ، وتعطل المعرفة والإدراك لديهم ، فكل همهم ملء البطون وإشباع الشهوات والتمتع بما يتمتع به الأنعام ، وهؤلاء هم حطب جهنم ووَقود النار ، وهم الذين قال الله عنهم : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وإنما كانوا أضل من الأنعام ، لأن الأنعام لم تُمنح من العقل والمواهب والنِعَم ما مُنِحوا ، كما أن الأنعام تؤدي مهمتها التي خُلقت لها ولا تتمرد عليها ، من دَرٍّ ونسل ،

---

(١) «عقائد المفكرين في القرن العشرين» للعقاد .

أو صوف ولحم ، أو ركوب وحمل . فإذا غفل الإنسان عن ربه الذي خُلِق لمعرفته وعبادته وخلافته في أرضه ـ فهو أسوأ منها منزلة وأضل سبيلاً .

٣- التقليد :

والحجاب الثالث هو التقليد : الذي يُفقد الإنسان شخصيته ، ويجعله يفكر بعقل غيره ، فإذا نشأ في بيئة كافرة ملحدة ، أو تتلمذ على أناس ملحدين ، سلَّم إليهم زمام نفسه ، وعاش معهم ذيلاً وإمعة ، يؤمن بما آمنوا ، ويكفر بما كفروا ، فمن الناس من يُقلِّد سَلَفه وآباءه ، ومنهم من يُقلِّد كبراءه وزعماءه ، ومنهم من يُقلِّد أساتذته ومعلميه ، وكل هذه الألوان من التقليد حُجب وسدود ، تحول بين الناس وبين الإيمان بالحق . ولهذا حمل القرآن عليها وعلى أصحابها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ

﴿ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠،١٧١) ويعرض لنا حال الزعماء ومقلديهم يوم القيامة فيقول : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٦،١٦٧).

٤- المكابرة :

أما رابع هذه الحُجب وهو أكثفها وأغلظها فهو المكابرة والعناد . إن دلالة الفطرة ، ودلالة الكون ، ودلالة الضمير ، ودلالة الوحي ، ودلالة التاريخ ، كلها وأضعافها وأضعاف أضعافها من الدلائل ـ لن تقنع أولئك المكابرين الذين يسدُّون آذانهم لئلا يسمعوا صوت الحق ، ويُغشون أعينهم لئلا ترى النور ، ويوصدون قلوبهم كيلا ينفذ إليها شعاع من الهدى . إنهم يجادلون ليشوشوا لا ليفهموا ، وليغلبوا لا ليقنعوا ، إنهم كما وصفهم الله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٨،٩).

إن المعاند المتعصب لا يقنعه ألف دليل ودليل ، ولن يهتدي إلى الحق ولو برؤية العين ، ولمس اليد ، وإدراك الحس . وقد طلب المشركون الجاحدون برسالة محمد ﷺ أن يُنَزَّل عليهم كتاباً من السماء يشهد له بالرسالة ، أو يصعدوا هم إلى السماء ليسمعوا شهادة الملأ الأعلى بنبوته ، فردَّ القرآن الكريم على تعنتهم وسخف مقترحاتهم ، وبيَّن دخيلة أنفسهم بقوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:٧). وقال في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر:١٤،١٥)

حتى لمس اليد ، ومشاهدة العين ، يستطيع المتعصب المكابر أن يَماري فيهما ، وأن يتهم يده التي لمست ، وعينه التي أبصرت ، ويدَّعي أنه كان مخدَّراً ، أو مسحورا ، أو ما شاء له عناده وهواه . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس:١٠١).

وما أبلغ القرآن وهو يجعل الآيات المبثوثة في النفس والآفاق عبرة لأصحاب العقول والقلوب وحدهم لا لغيرهم: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، أو ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٣) ذلك لأن المعاند المكابر لا يتفكر ولا يعقل ولا يذكر ولا يسمع، ومن كان هذا حاله فليس يهتدى إذن أبداً ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧).

إن ألف دليل ودليل لا تكفي لإقناع من «جمَّد» عقله، وأغلق قلبه، وأصر على الجحود والإنكار، وكل شيء في الأرض أو في السماء مقنع لمن يريد أن يقتنع، وهاد لمن يريد أن يهتدي.

فيا عجبا كيف يُعصى الإله — أم كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكة — وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية — تدل على أنه الواحد

* * *